الحفاظ على التراث المعماري في العراق

اقصاء وتهميش العمارة البغدادية

ضيّف القسم الثقافي في مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون عددا من المعماريين والمثقفين في مركز التطوير الإعلامي لوضع أسس الحفاظ على التراث المعماري. أدار الندوة الإعلامي رفعة عبد الرزاق الذي قال: ارتأت مؤسسة المدى أن تقيم هذه الجلسة الابتدائية كمقدمة لجلسة كبيرة، يجري العمل على تنظيمها في وقت لاحق، كذلك ارتأت أن تضيف شخصيات محددة لتكوين رؤى حول الجلسة القادمة. إن الحديث عن أحياء التراث المعماري في بغداد على وجه الخصوص، تجدد في بغداد حالياً، بشأن الكثير من التراث المعماري البغدادي القديم، وربما يكون شارع الرشيد أحد هذه النماذج التي يجري الحديث عنها كثيراً، حول التغييرات الكبيرة التي جرت على هذا الشارع، بدءاً من إغلاقه بشكل تام، أو الاعتداء على الأبنية التراثية القديمة التي يرقى عدد منها إلى العهد العثماني

بغداد/ محمود النمر

جانب من الحضور

ولكن المشكلة عامة، هي أن الكثير من المدن العراقية القديمة – ونحن نقرأ كل يوم في الصحف والمجلات والمجالس الأدبية – يجري عليها ما يسمى بتغليف هذه الأبنية مما يؤدي الى فقدان هذا التراث، السمة المعمارية التراثية الجميلة. بغداد تستحق من اهلها والقائمين على الحكم في العراق الكثير والكثير، لا أقول إنها كانت حاضرة العالم في وقت من الأوقات، لكن الآن هي عاصمة الدولة العراقية، فأوروبا تعرضت للكثير من الخراب نتيجة الحروب، وهناك افلام وثائقية تظهر مدى انهيار التراث المعماري الذي حصل في مدن أوروبا، ولكن عادت هذه المدن بعد سنوات قليلة الى ما كانت عليه قبل الحرب، وهذا دليل على ان التراث المعماري يحمل صفات المدن ومعالمها التاريخية المهمة.

وكان أول المتحدثين، المعمار والمهندس الاستشاري د.هشام المدفعي قائلاً: يسرني اليوم ان احضر معكم في مؤسسة المدى، هذه المؤسسة المتميزة بقيادة متميزين، اثبتت لكل المثقفين انها منهم وتعمل من اجلهم.

اقول يسرني ان نحضر لبحث موضوع العمارة التراثية وما يدور حولها من امور، وان نتدارس بيننا ما يشغلنا في هذا الموضوع، العمارة التراثية شأن واسع، والبحث فيها قد يكون من الشؤون الاكاديمية التي لها علاقة باظهار العناصر التراثية وكيفية تجسيدها وعرضها في المباني الحديثة الى المتلقي، الا انني اقترح ان نبحث في الحفاظ على ما موجود لدينا في العراق من العمارة التراثية.

تنتشر في انحاء العراق الكثير من العمارة التراثية، وتتمثل في:

× محلة الباشا في البصرة والبصرة القديمة.
× رصافة بغداد والابنية الحديثة والقديمة في بغداد.
× مدينة الموصل القديمة.
× قلعة أربيل واسواقها.
× قلعة كركوك واسواقها.
× والكثير الكثير من هذا وذاك في المدن العراقية.

من النماذج الحية امامنا، نتيجة جهود المخلصين في عملهم اذكر:

× بيت الكيلاني في محلة السنك على نهر دجلة اعتمد كمتحف الرواد والمعهد الايطالي.
× بيت آخر على دجلة مقابل السفارة البريطانية.
× ٣٦ دارا تراثيا من دور بغداد قامت امانة العاصمة بالحفاظ عليها، منها ٩ في شارع حيفا، و٦ قرب الحضرة الكيلانية، والباقي في كاظمية بغداد.

وهناك أمثلة أخرى.

وأكد المدفعي، لقد شيّد الكثير من العمارات اثناء الحكم العثماني للعراق في تلك الحقبات الزمنية، واعتبرت الآن من العمارة التراثية، ومنها العديد من الأمثلة الموجودة لدينا حالياً، كأبنية القشلة في بغداد، وبناية ما معروف بالكرنتينة في الوزيرية في بغداد وما شابههما من المدن العراقية.

لكن أود أن أتطرق هنا ببساطة الى موضوع اقرب الى تعريف الاخرين بما موجود لدينا من العمارة التراثية في العراق، وهو ما بحث في ندوات سابقة، عقدها الدكتور خالد السلطاني في جامعة بغداد قبل سنوات قليلة، باحثاً فيها:

× عمارة العشرينات في العراق.
× وعمارة الخمسينات في العراق.

حيث تطرق الى ما تركه الانجليز والمصممون البريطانيون في فترة العشرينات بعد الحرب العالمية الاولى، وما حققه المعماريون العراقيون خلال خمسينات القرن العشرين، من عمارة اعتبرت تراثية، ومن أبنية العشرينات ما يأتي:

× بناية المديرية العامة للموانئ في البصرة.
× بناية دار المعلمين الابتدائية قرب المقبرة الملكية.
× بناية المستشفى الملكي في معسكر الرشيد.
× وبوابة القشلة قرب بناية مديرية الشرطة العامة ومديرة الاقاف في بغداد.

لا يمكن ان يتم ذلك عن طريق الجهود الشخصية من قبل افراد منا، حيث ان الامر اوسع من كون الموضوع عملا فرديا او مجموعة افراد، بل أدعو الى ان نوجه نداء الى الجهات الرسمية والمعنية بالحفاظ على التراث في الحكومة، كأصحاب اختصاص ومن اجل الحفاظ على التراث العالمي، هي ان نطلب مساعدة الصحافة العراقية ومؤسسات الاعلام العراقي، بين فترة واخرى، وعن طريق نشر بحوث او لقاءات صحفية، على توعية المواطن العراقي بما يتوفر حوله من عناصر تراثية وأهمية الحفاظ عليها.

كما أدعو الى أن نوجه نداءات الى المؤسسات العالمية ومنظمات اليونسكو، العالمية والعربية، او المؤسسات العالمية التي تدعم الحفاظ على التراث العالمي، لتدارك الامور معنا، في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه او الحفاظ على ما يمكن من تراثنا الوطني.

وأشار سالم الآلوسي إلى اهتمام مؤسسة المدى بهذا الموضوع المهم عبر تخصيص ندوات عن هذا الإرث المعماري، وقال: يسرني أن أقول إن العراق مهد الحضارات التي تعد من أقدم الحضارات في العالم في أي مجال من مجالات العلوم والثقافة، هذا التراث الضخم الحضاري الذي ورثته بغداد التي عمرها الآن بعد تأسيسها من قبل أي جعفر المنصور، (١٢٥٠) سنة إلى هذه اللحظة، لقد مرت على بغداد عصور وعهود من العهد العباسي والعصر البويهي والعصر السلجوقي وانتهاء باحتلال المغول لبغداد عام (٦٥٦) للهجرة (١٢٥٨) للميلاد، وتناوب السلالات الأجنبية على حكم العراق، ابتداءً من العهد المغولي (الجلائري) (لاليخاني) وإلى العهد المغولي (الجلائري) وبعد ذلك تأتي العهود التي نطلق عليها اسم الدول التركمانية مثل (القروولو) و(لاقولو) وبعد ذلك العهد الصفوي الذي استدام (٢١) عاماً، ثم يأتي العهد العثماني الذي دام حوالي (٥٠٠) عام، وقد ترك لنا من المآثر والمباني والجوامع والمدارس الشيء الكثير، منها ما بقي قائماً ومنها ما أتت عليه دواعي الزمن فاندثر.

وأضاف الآلوسي: وعندما تكونت الدولة العراقية وقام على تأسيسها ناس مخلصون سيذكرهم التاريخ بأشرف الصفات لأنه تتلوث أيديهم بسرقة أو خيانة، كلهم وطنيون وأسسوا دولة من لا شيء، فإنه ليست هناك مؤسسة مولت الحفاظ على التراث منذ عام (١٩٢٢) يوم تكونت دائرة الآثار والمتحف العراقي، وقد أسستها (مس بيل) السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي البريطاني ودوائر الانتداب، وكان ذلك في القشلة في غرفتين من الطابق الأرضي.

بعد ذلك قرأ الناقد التشكيلي د.جواد الزيدي ورقة بعنوان العمارة العراقية.. جاء فيها: يعد فن العمارة من اول الفنون التي ارتبطت بالانسان ومسعاه الدائم الى تطويرها وتشييد طرز مختلفة منها، وفقاً لتطور حياته حيث ابتدأ بالكهف وانتقل منه الى البناء السطحي، أي فوق سطح الارض، ثم بدأ يؤسس ملامح عمارية لكل عصر باختلاف الأمكنة، وهكذا يمكن تأشير طبيعة العمارة من خلال العصر الذي نشأت فيه، واصبح هذا التشييد يمتلك سماته الخاصة المرتبطة بالفكر الفلسفي والاجتماعي والديني الذي يحياه الانسان وهذا ما يؤكد ارتباط الزقورات في العراق القديم بالفكر الديني او الاهرامات في مصر القديمة والمعابد في اثينا وغيرها. وبتطور العقل الانساني وتحوله المستمر بدءاً من العقل الزراعي الى الاسطوري ومن ثم الديني وصولاً للعقل العلمي الذي نحياه الان، مرت العمارة بمراحل عدة وبقيت اثارها ماثلة حتى وقتنا هذا مؤشراً وملمحاً لطبيعة الحياة في ذلك العصر، فمعبد البارثينون، ومسجد تاج محل، وقبة الصخرة، والمدرسة المستنصرية وقصر العاشق كلها شواهد معمارية دالة على بنية ثقافية وحضارية لعصر ما على صعيد العمارة والمكملات الجمالية من زخارف وخطوط.

وبحدود هذا ايضاً يمكن ان نستدل على طبيعة عصر من خلال بعض ملامحه المعمارية، نستطيع ان نحيل عمارة الى عصرها من خلال الاعمدة والاكتاف والزخارف والعقود، وان هذه العقود تنوعت بحيث اصبحت سمة من سمات بعض المنشآت المعمارية، فالعقد الحدوي (حدوة الفرس) المفرد والثلاثي والمقرنص، والعقد المدبب كلها خصائص العمارة لعمارة العصر الاموي والاندلسي والعباسي وهكذا، وقد اشتهرت العمارة البغدادية بهذا النوع من الاشكال المعمارية التي رحلت الى عمارتنا المعاصرة في بعض تفاصيلها ايماناً من بعض المعماريين بضرورة العودة للتراث العربي الاسلامي او العراقي وامكانية توظيفه، وهكذا ظهرت بعض الاشارات المعمارية في الابنية التي صممها محمد مكية، والمدفعي، والجادرجي وغيرهم من المعماريين الا ان هذه الاشارات بقيت بحدود الجهد الفرداني ولم تؤسس مدرسة بغدادية معاصرة في العمارة مثلما تحدثنا عنه، حيث نستطيع تمييز عصرنا الحالي من خلال عمارته، حتى بعض الشواهد المعمارية التي تتعرض الان للاهمال من قبل المؤسسة الحكومية المسؤولة وغياب التخطيط العمارني لمدينة بغداد او اجراء التحديثات اللازمة والمطلوبة على هذا التخطيط وفق خطط خمسية وعشرية وغيرها اسوة بمدن العالم المتحضر، فهذا ناتج عن غياب المتخصصين وعدم وجود المؤسسة الحكومية المسؤولة رسمياً عن هذه العملية وما يحدث الان وما حدث قبل بقليل يدعو للتشاؤم، اذ اقدمت هذه الجهات على تقويض هذه الابنية العمارية بحجة بناء منشآت اكثر حداثة عليها وهي قد بيعت الى تجار السياسة لاستثمارها في اقتصاد فردي خاص بالاحزاب او الافراد وشركاتهم.

وقال الباحث والإعلامي عادل العرداوي إن هذا الاجتماع الذي يضم نخبة من المعماريين هو إكمال لجهود مؤسسة المدى، نحن ليست لدينا تخصيصات مالية كأفراد ومؤسسات، وهذا العمل من مهمات الدولة وهناك دوائر في الدولة لديها تخصيصات، ولديها شبه أقسام وشعب معينة بحماية التراث، يعني في محافظة بغداد وأمانة بغداد وهيئة التراث وحتى في الوقف الشيعي والوقف السني، وأنا اعرف ذلك، ولو نقدر أن نحرك تلك الشُعب من خلال زياراتنا لها، او نضيّفهم هنا من خلال الندوة الكبيرة التي نطمح إلى تفعيلها، ومعهم رؤساء أقسام المعماريين في كليات الهندسة.

وأكمل العرداوي حديثه: إن الأستاذ المدفعي ذكر المعماري الدكتور خالد السلطاني عندما كان هو رئيس القسم المعماري في كلية هندسة/ جامعة بغداد، وكان هذا الرجل مندفعا وحريصا وصادقا في توجهاته.

لا بد من زج الدوائر الحكومية لان مثل هكذا مشاريع تحتاج الى تخصيصات مالية لكي نقدر أن نصون المباني، فهل بالإمكان ان تعمر شارع الرشيد أو بعض البيوتات التراثية والأماكن البغدادية الأخرى من دون دعم.

الشاعر ياسين طه حافظ كان من ضمن الحضور المتميز حيث قال: إن هناك اشكالية ثقافية في فهم جديد للتراث، فالتراث لم يعد الاقواس ولا المبنى القديم بطريقة ما، ولا الفنجان، التراث فكر وروح كامنان في ظاهرة مادية متبقية في الماضي، لكن هي ما تزال لها قدرة إشعاع، نحن ناس ابناء حاضر وابناء مستقبل، وكل علمنا الأدبي والفني والحياتي باتجاه المستقبل، أي عمل يسند هذا هو لنا، وأي عمل يعرقل هذا هو ضدنا، وهذه قضية شعوب، ليس كل مبنى نحن نعتز به، المبنى الذي ما يزال يوحي ويقدم شيئاً هذا هو الذي نعتز به ويفيدنا، المبنى الذي لا يعطي شيئاً أو أي ظاهرة تراثية لا تعطي شيئاً معناها خامدة ونحن غير مجبرين عليها.

وأضاف حافظ لو كل شيء ينبغي لنا أن نعتني به، معناها نعرقل نصف القدرات المادية للأرض الموجودة التي بدأت تشح يوماً بعد يوم، إذن لا بد من اختيار لا بد من ثقافة استيعابية تقدر ما هو المهم فيها، هل هذا الأثر ما تزال له قيمة؟ المعمار يقول شيئا، والفنان يقول شيئا، والاديب يقول شيئا، وابن الحياة العامة يقول شيئا، لكن نحن غير معنيين بأن نعتز بكل شيء قديم، وكل شيء سيكون قديماً، ونحن باتجاه المستقبل، إذن فلتكن هذه الظواهر التراثية العزيزة علينا، أن نختار ما هو مفيد وما يشكل نقاط ضوء لمستقبل نعتز به، يجب ان نتحسر على المستقبل الذي لم نحظ به.

الندوة كانت ذات أهمية في اشتباك الرؤى واثارة الجدل في الحضور، وأسست نواة لتكوين هيئة مشتركة من جميع المعنيين بالتراث الفلكلوري والحفاظ على ذلك التراث، وأوصوا بان تكون هناك ندوات قادمة لوضع اسس وتكوين اشتراطات في ذلك.

كما اكد الفنان التشكيلي سعد الطائي على ان ظاهرة الاقواس الجديدة في المباني تشكل ظاهرة بشعة وكأنها أقواس مقابر، لان امانة العاصمة اوعزت للجميع بأن المباني الجديدة يجب ان تكون فيها سمة اقواس وكانت ظاهرة بشعة في الشوارع الرئيسة، ولا اعرف ان كنت مخطئاً ولكنها موجودة، البناء ليست له علاقة بالأقواس، وهي غير واضحة المعالم ولا تمت بصلة للأقواس الإسلامية بجميع عصورها الاموية والعباسية ولا أي مرحلة، المشكلة تكمن بمن هو مسؤول، يعني أنت تقرر شيئا، وجمعية الفنانين تقرر شيئا، ومن ضمن مقترحاتها ان يكون شارع (عكد النصارى) بيوتا للفنانين مقابل إيجار بسيط، وتكون طريقا سياحيا كما في روما او باريس وهذا المقترح لا يسمعه أحد لان المسؤول لا يسمع.

جواد الزيدي: تم تقويض الأبنية العمارية بحجة بناء منشآت أكثر حداثة عليها وبيعت إلى تجّار السياسة لاستثمارها في اقتصاد فردي خاص بالأحزاب أو الأفراد وشركاتهم.

ياسين طه حافظ: أي ظاهرة تراثية لا تعطي شيئاً معناها خامدة ونحن غير مجبرين عليها.

هشام المدفعي: أدعو إلى وضع قاعدة بيانات لما موجود من عمارة تراثية.

هشام المدفعي

مآب الالوسي

سالم الالوسي

عادل العرداوي: المهمة الأساسية للحفاظ على الأثر المعماري تقع على عاتق الدولة.

جواد الزيدي

ياسين طه حافظ

سعد الطائي

عادل العرداوي

سالم الآلوسي: ليست هناك مؤسسة موّلت الحفاظ على التراث منذ عام (١٩٢٢)، يوم تكوّنت دائرة الآثار والمتحف العراقي التي أسستها (مس بيل).